"فتح": المؤتمر السابع وتداعياته

وليد نويهض*

فلسطين والفدائي في الذاكرة

"اللـه مع الفدائي"؛ "اللـه ينصر ويحمي الفدائي".

هذا الدعاء كنت أسمعه يومياً حين يمر الفدائي في بيروت وهو في طريقه إلى مركز منظمة التحرير الفلسطينية في كورنيش المزرعة. آنذاك، في نهاية ستينيات القرن الماضي، كانت مكاتب المنظمة تعجّ بالزوار بصفتها تمثل تلك الهيئة الرسمية للشعب الفلسطيني، وبسبب هذه الصفة الرمزية كانت المكاتب التي تقع في جوار منزل والدي، تمثل نقطة تقاطع للاتصالات واللقاءات بين الرفاق والأصحاب والأصدقاء وكل مَن يرى في العمل المسلح قوة سياسية للتحرير والعودة.

في تلك الفترة، كانت النقاشات والسجالات وصلت تقريباً إلى حدّها الأعلى بعد الهزيمة المنكرة التي تعرضت لها الأنظمة العربية في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. الكل يشعر بالإهانة، والجميع يفكر في الرد، في الثأر، في الانتقام، وغيرها من شعارات لم يعد ممكناً حصرها من كثرة ترددها وتكرارها في لحظة شهدت المنطقة حالات من الإحباط جرّاء سقوط رمز الأمة في معركة خاطفة لم تتجاوز الأسبوع.

كان الفراغ هو المسيطر، ولم يبقَ من خيار سوى البحث عن بديل يأخذ بالمهمة ويقودها في اتجاه مخالف لتوجهات الأنظمة واستراتيجياتها. بهذا المعنى الظرفي تحوّل الفدائي إلى رمز تتجسد فيه الأماني والطموحات والآمال كافة. **الكوفية** كان لها معنى آخر غير وظيفتها التقليدية، و**البندقية** كانت أيقونة على اعتبار أن النصر سيخرج يوماً من فوهتها. لذلك حين كان الفدائي المجهول يمر في طريقه إلى مركز المنظمة، كان يسحر المارة ويشد الانتباه إلى منظره (الكوفية والبندقية) المدهش في رمزيته التي توشر إلى التضحية بالنفس من أجل خلاص الآخرين.

من الصعب الآن وصف ذاك الشعور، أو معرفة خلفياته ودوافعه، إلاّ في سياق وضع المسألة في إطارها الزمني، وتلك اللحظات الجميلة في عفويتها وبساطتها. فالقراءة عن بُعد تختلف عن المشاعر البريئة في وعيها السياسي ورؤيتها إلى واقع شديد التعرجات في صعوده وهبوطه.

لم يكن ممكناً في تلك اللحظات السيطرة على العاطفة التي تفيض عن حدّها حين تمر الأيقونات أمام المشهد الذي يختزل كثيراً من الطموحات والتطلعات، ويوشر في اتجاه مستقبل آخر لا صلة له بالانكسار والذل والإهانة.

---

* كاتب وصحافي لبناني.

ولا أنسى ذاك الفيلم الوثائقي المسجل الذي هو عبارة عن مقابلة مصورة مع الفدائي أبو عمّار. آنذاك توجهنا إلى سينما بيروت في نهاية كورنيش المزرعة لمشاهدة تلك اللقطات الساحرة مع "قائد الفدائية" وهو يتحدث عن التجربة والثورة من أحد كهوف غور الأردن.

لا يمكن وصف تلك اللحظات حين عمّ السكون الصالة، وكادت الأنفاس تنقطع عندما بدأ القائد يتكلم عن الأهداف والغايات والطموحات والتضحيات. ساد الذهول القاعة، وكانت العيون شاخصة إلى الشاشة لا تصدق ما تراه وتسمعه من وعود باهرة تعوّض كثيراً من الشعور بالنقص والضعف.

الرافعة والبوّرة ورأس الرمح

لم يمضِ وقت طويل حتى انتقلت الأيقونة، بما تمثله من رمزية للقضية العادلة، إلى لبنان في مطلع سبعينيات القرن الماضي. وهذا الانتقال كان له معانيه التي تحقق ذاك التعادل المطلوب في موازين القوى السياسية بين كفّة تطالب بالانكفاء والعزلة عن المحيط، وكفّة تصرّ على الالتحاق والاندماج في الجوار.

لقد كان هناك بعض الخجل لدى فئات لبنانية من عار الحياد والابتعاد عن قضايا المنطقة، والتخلي عن واجب أخلاقي ووطني وإنساني بشأن الدفاع عن حق العودة وحقوق المظلومين. ولم تكن فكرة الملجأ اللبناني واردة في ذهن بعض الشرائح السياسية، ففكرة اللجوء مرفوضة في منطق يعتبر أن البلد واحد والأرض واحدة والخيمة واحدة والقضية واحدة، والجميع سواسية في مهمة واحدة وخلاص مشترك.

هكذا استُقبلت المقاومة في فترة انتقالها إلى بيروت، وتحت سقف تلك القراءة الرمزية للمهمات والأهداف جرى التعامل مع قوة محصنة بقضية عادلة كانت في معناها السياسي غير قابلة للنقاش أو التفريط. كانت المسألة تحلق أيديولوجياً فوق السحاب، ولم يكن ممكناً ربطها بأوتاد الأرض ووقائع الحياة السياسية، ولذلك ليس غريباً أن يبدأ الاحتكاك وتأخذ الحرارة بالارتفاع في بلد ترى سلطته السياسية في الحياد قمّة الذكاء، وفي الضعف قوة.

القنبلة كانت بحاجة إلى وقت كي تنفجر. فالتيار الذي يدفع في اتجاه الالتحاق والاندماج كان يرى في الأيقونة فرصة للتغيير وتصحيح الاتجاهات، بينما التيار الذي يصرّ على العزلة والانكفاء كان يخشى على مصير الامتيازات والخصوصية، فضلاً عن تحويل البلد إلى ساحة مفتوحة للرياح الإقليمية.

كان من الصعب في ذاك المنعطف الحاد وقف الانزلاق نحو الاصطدام. الجانب الذي يرفع شعار الرافعة قرأ في الأزمة مناسبة للتغيير، فالصخرة اللبنانية كانت جاهزة للقلب، لكنها تحتاج إلى "رافعة" تحركها وتزعزعها وتقتلعها من مكانها وتقلبها إلى مكان آخر، أمّا الجانب الذي يرفع شعار "البوّرة" فرأى في الساحة المفتوحة قوة جاذبية تشد الأطراف العربية إلى حلبة الصراع، بينما أراد الجانب الذي يرفع شعار "رأس الرمح" أن يعدّل خريطة الصراع وينقل ثقل القضية من الأنظمة (الجيوش) إلى الشعب (الكفاح المسلح).

تفرّق الشارع المتعاطف مع الأيقونة بين مَن يريد استخدام "الرافعة" لتغيير المعادلة اللبنانية، وبين مَن يريد تحويل "البوّرة" إلى منارة تجذب الأمة إلى ساحة مفتوحة ومشتعلة، وبين مَن يريد أن يأخذ زمام المبادرة من الأنظمة الفاشلة وتحويل جيوشها إلى قوة داعمة لرأس الرمح (المقاومة).

هذا التنوع في الآراء والتوجهات، كان له مدلوله السياسي بين فريق لبناني يعطي الصراع الداخلي أولوية كونه يؤسس لاحقاً قاعدة صلبة لدعم المقاومة، وفريق يعطي الصراع مع العدو أولوية لأنه يشكل

التناقض الرئيسي في المواجهة الكبرى، وفريق يطالب بالمحافظة على الواقع كما هو وإعطاء الجيوش النظامية الأفضلية وتحويل المقاومة وتجييرها كي تكون قوة دعم غُوارية للمعارك الكلاسيكية.

في ظل هذه الفضاءات الأيديولوجية اندلعت حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، وشرعت الأنظمة تسترد هيبتها في حقبة كان من الصعب تنشيط دور المقاومة في فترة زمنية خاطفة طغت عليها ضخامة الحروب النظامية.

التحرير حرب خاطفة أم ماذا؟

شكلت حرب تشرين/أكتوبر نقطة تحوّل في مجرى الصراع العام، وكانت بمثابة خطوة أولى نحو ترسيم خطوط الانقسام العربي وترتيب أولويات في منظومة الدفاع: أخذت مصر تخرج على الإجماع، وبدأت منظمة التحرير تفقد تلك المظلة التي كانت بحاجة إليها للحماية والحدّ من طموحات الأنظمة.

وخروج مصر سياسياً من السياق العربي أعاد رسم خريطة طريق لتحالفات كانت محكومة بقانون الجوار الجغرافي، وبشروط الجولات المكوكية التي قادها هنري كيسنجر في زياراته الخاطفة للعواصم العربية باستثناء بيروت التي حاول الهبوط في مطارها الدولي وفشل، فاضطر إلى التوجه إلى مطار رياق العسكري.

إحباط زيارة كيسنجر لبيروت كان نقطة بداية التحول في السياسة الأميركية، إذ أخذ الغطاء الدولي ينكشف عن لبنان على اعتبار أن دولته فاشلة وعاجزة وغير قادرة على حماية أمن الزائرين والدبلوماسيين.

ولم تتوقف جولات كيسنجر المكوكية إلاّ بعد أن جرى الاتفاق على فصل القوات في سيناء، وبُدىء تطبيق الانسحاب خطوة خطوة وصولاً إلى الجولة الأخيرة التي كان موعدها في نيسان/أبريل ١٩٨٢.

بين تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ ونيسان/أبريل ١٩٨٢ جرى في المشهد اللبناني عشرات الجداول والأنهار، الأمر الذي أعاد تشكيل الصورة، ورسم خطوط تماسها في حروب شوارع بيروت وطريق الشام وصولاً إلى جبال صنين وقرى الجنوب اللبناني. فالحصن الوهمي انخلعت أبوابه، وانكشف الفضاء العربي في تلك الفترة أمام اختراقات وتحالفات لولبية ساهمت في عزل مصر ومقاطعتها وانزياح مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس.

وسط هذه الأجواء العاصفة انقلبت الأولويات وتداخلت العواصم واشتد تنافسها على ساحة باتت مفتوحة أمام أيديولوجيات أخذت تخلط شبكة الواقع الطائفية ـ المذهبية بأفكار عصرية فضفاضة منقولة عن أوروبا، وعن تجارب حروب عصابات في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

وفي ذلك العقد من الزمن كان يمكن رصد التحولات العربية والإقليمية من صحافة بيروت ودور النشر ومراكز الأبحاث التي استحالت في مجموعها مرآة تعكس أكثر من منارة تشع.

وهذا السجال الذي امتد من حزيران/يونيو ١٩٦٧ إلى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، استقر بعد اتفاقية فصل القوات في سيناء ثم الجولان على معادلة الضفة والقطاع أولاً، ثم أراضي ١٩٤٨ ثانياً. فالتحرير لا يتم بضربة واحدة وبحرب خاطفة، وإنما خطوة خطوة وبصراع طويل الأمد يحتاج خلاله إلى سلطة على أرض محررة تكون مركز انطلاق للتحرير الشامل.

كان النقاش بشأن تحرير فلسطين خطوة خطوة أو بحرب خاطفة أو بمعارك طويلة المدى يتعايش مع انفجار حروب الأزقة والأحياء وخطوط التماس الملتوية والمتعرجة من الجنوب إلى الشمال

والبقاع منذ سنة ١٩٧٥. واستمر التطاحن إلى أن كان القرار العربي الذي أعطى الضوء الأخضر لدخول قوات الردع بذريعة وقف نزيف الدم. وبدأ القرار عربياً وبالإجماع، لكنه انتهى بعزل مصر ومقاطعتها وخروج الردع وحصر قواته في دائرة الإقليم والجوار الجغرافي.

آنذاك كان السجال الأيديولوجي العفوي قد وصل إلى نهاياته المسدودة، وأخذ التشقق يتمظهر في صورة ألوان تميّز مواقف الحلفاء والأصدقاء والرفاق في المعسكر الواحد. فالقضية لم تعد مسألة كافية للتوافق بعد أن دخلت عليها سياسات وأولويات تقرأ موضوع العودة في إطار جغرافيا لا تشمل فلسطين كلها بل بعضها.

الدولة أو الثورة

لم يكن في إمكان المشهد أن يصل إلى هذا المستوى من التداعي لو أن صورة **الفدائي/الأيقونة** أو **الفدائي/الرمز** حافظت على جماليتها ومثاليتها مثلما كانت في جوار مقر منظمة التحرير في كورنيش المزرعة.

الأرض اللبنانية ليست صلبة وإنما لزجة، وهذا الأمر هو مكمن قوتها، فهي مغرية للبعيد وصعبة على القريب. وبسبب هذه الصورة المبهمة في تلاوينها اجتاحت إسرائيل الأرض اللزجة من الجنوب إلى صبرا وشاتيلا في سنة ١٩٨٢، وسرعان ما اكتشفت تل أبيب تورطها في بلد شديد الليونة ينخدع بصلابته الصديق قبل العدو.

كان من الصعب تخيل خروج الفدائي من المرافئ في سفن دولية إلى منافٍ عربية، فالمشهد أقوى من كاميرا توّطر أطيافه في كادرات يمكن تعليقها على الحائط. ولم يكن ممكناً قبول الفكرة أو تقبّلها في لحظة خروج جماعية قلّ تكرارها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إلاّ في فييتنام ولاوس وكمبوديا.

عدم القدرة (أو الرغبة) على التكيف مع الهزيمة الميدانية التي كرست الانشطارات العمودية والأفقية في بلاد الأرز، جعل من المستحيل التخلي عن الهدف الكبير في وقت تشرّدَ الفدائي وتوزّع على المرافئ العربية.

ما العمل إذاً في واقع ممزق زادت الحرب العراقية ـ الإيرانية في حدّته؟ لقد بلغت الاستقطابات حدّها الأعلى في توترها، وباتت الاغتيالات تلاحق ما تبقّى من صورة الفدائي.

إلى ذلك، كانت السياسة قد بدأت تتدحرج من رفوف التوليفات الأيديولوجية وتلك الترجمات التي تصف تجارب حروب العصابات، إلى حضيض قاعٍ لا يُرى من جوفه سوى ركام الدمار الذي يلف المحيط والآفاق.

وكان السؤال: دولة أو ثورة؟ الدولة هي الجزء، والثورة هي الكل. الكل بعيد، والجزء قريب، وما بينهما المنافي الموزعة من المحيط إلى الخليج.

لم يأتِ الجواب من فراغ، وإنما تدرّج في محطات زمنية، وخطوة خطوة، من صيحة "الله مع الفدائي"، إلى شعارات الرافعة والبؤرة ورأس الرمح، إلى نظريات الحرب الخاطفة أو الطويلة الأمد، إلى تحرير الجزء أو الكل، وصولاً إلى الاختلاف على بناء الدولة على الجزء، أو بقاء الثورة حتى استعادة الكل. هذا التدرج في الشعارات العامة والبرامج المرحلية هو أشبه بالتدحرج من الرأس إلى الوادي في وقت غاب إلى حد كبير عن المشهد ذاك الفدائي الملثم بالكوفية وحامل البندقية... فالفدائي الذي كان يمكن أن يُوكَل إليه رفع الصخرة من القعر إلى القمة، بات يحلم بمكان آخر للعيش والاستقرار. ■